قصة يوسف .. الرمز

في شعر عبده بدوي

هذا عصر الإنسان
المخطوف اللون
والمهشوج القلب
والنازف طول العمر
والمستثنى من
أحلامه كيما يثقب
برصاص ما بين العينين
ودون القلب
دون القلب

عبده بدوي

بقلم : د. محمد أبو بكر حميد

الشعر يعمم التجربة الإنسانية، فالتجربة الشعرية الصادقة تخرج من دائرة الخصوصية، وتهرب من الالتزام بظروف محدودة وأمكنة معينة، ذلك لأن الشاعر أو الفنان يقف دائما على مقربة من قلب عصره، يسمع دقاته وأنينه، ولهذا فهو غالبا ما يكون البشير أو النذير، فيستشعر «البكاء» قبل أن تسيل «الدموع»، ويحس «الموت» لأنه أول من يشعر بحالة «الاحتضار»، والفن والأدب تحدثا عن قيام حضارات وسقوط حضارات قبل أن يتحدث عن ذلك العلم.

وهذا ينطبق على شاعرنا الكبير د. عبده بدوي (١٩٢٧ - ٢٠٠٥م) - رحمه الله - الذي يتميز شعره بالتعبير الصادق عن واقع الإنسان العربي والمسلم على وجه الخصوص ويمس بأمانة الجانب المأساوي فيه حيث القهر والظلم والاضطهاد. وقد يبدو شاعرنا للوهلة الأولى متشائما من الأوصاف التي ينعت بها الإنسان والعصر. لكن قراءة متأنية لشعره تفتح أمامنا أبوابا للأمل، وتبدأ تظهر لنا رؤية الشاعر للإنسان والحياة. لكنه لا يسلمنا مفاتيحه من أول قراءة، فشعره من ذلك النوع الذي كلما عاودت قراءته تزداد اكتشافا له ومعرفة برموزه وإيحاءاته.

ـــز والتوظيف ومعمار القصيدة

هذه ظاهرة يجدها الدارس لشعر عبده بدوي في تناوله لقضية الإنسان والعصر، لذلك نجده يلجأ للرمز والإيحاء في الحديث عن قضايا معاصرة ليعطيها أبعادها الإنسانية، إن شاعرنا الكبير عبده بدوي يمثل ظاهرة متميزة بين أبناء جيله حين آثر أن يسلك الطريق الصعب، ولم يجعل من شعره صحيفة يومية تسجل الحوادث، ولا تاريخاً خاصاً يهتم بقدح هذا أو مدح ذاك.

وحتى عندما ينطلق الشاعر من خصوصية إسلامية فإنه لا يفقد بعده الإنساني العام بل يؤكده بتوجيه الرمز وطريقة التصوير، ولعل قصة يوسف عليه السلام القرآنية وأثرها في شعر شاعرنا الراحل عبده بدوي - رحمه الله - تعد نموذجاً لتقديم هذا النوع من الخصوصية في بعدها الإنساني العام، ويظهر هذا أكثر ما يظهر في قصيدته الشهيرة والأثيرة لديه (**الشاعر والعالم**) محور تطبيق هذه الدراسة.

والتوظيف الفني لقصة يوسف عند شاعرنا الدكتور عبده بدوي يأتي في إطار اتخاذ الشاعر شخصية يوسف مادة فنية بكل أبعادها المادية والمعنوية وذلك من خلال توظيفه الهيكل العام للقصة بما فيها من حدث وشخصيات وقيم. ويعتمد الشاعر على العديد من المواقف التي يعيد صياغتها وتصويرها في ضوء معاصر مثل «**جمال يوسف**»، و«**الرؤيا في السجن**»، و«**الرأس الذي تأكل منه الطير**»، و«**غدر الإخوة**»، و«**أكذوبة الذئب**»، و«**امرأة العزيز**»، و«**النساء اللاتي قطعن أيديهن**»، و«**خزائن مصر**»، و«**القميص الذي يرتد به البصر**». وشاعرنا لا يلتزم التسلسل القرآني في توظيفه لهذه الأحداث، وإنما يرتب الأحداث في بنائه الشعري وفق «منهجه» الخاص الذي يقوم على نوع من المفارقة التي تطبع خيال ووجدان القارىء، وبالتالي تشق طريقها إلى ذهنه.

معادلة ذكية:

وحين نتأمل قصيدة «**الشاعر والعالم**» - وهي خير ما ينطبق عليه التوظيف الفني لقصة يوسف - نجد أن عنوانها أكبر مفاتيحها حيث تبدو لنا صورة «يوسف» وصورة الشاعر متطابقتين تماما بل وتمتزجان في عنصر واحد. فكلمة «العالم» توحي بالدائرة الواسعة التي تدور في محورها القصيدة، وإذا تأملنا هذه الدائرة نجدها من السعة بحيث يتمزق فيها المكان. فلا تبقى إلا السعة الزمانية التي تمتد من عصر يوسف إلى عصرنا لتؤكد بأن الإنسان قد حمل في لا شعوره - عبر العصور تجربة «**غدر الإخوة**» و«**خيانة امرأة العزيز**» وأن هذه التجارب قد تطورت بتطوره. أما تجربة «يوسف» نفسه في صد امرأة العزيز فيبدو أن الإنسان المعاصر لم يستطع أن يتمثلها ويهضمها وبالتالي سقطت من ذاكرته، وسقطت معها كل القيم المعنوية الرفيعة في الحياة. ولما كان «يوسف» - في زمانه - قد وقف متحديا «العالم» حين أصر على المحافظة على طهارته فرفض امرأة العزيز، وقبل بالسجن، وآثر الصدق والنقاء الروحي على الكذب والزيف المادي والمعنوي، فهو يقف في مواجهة العالم، ويعيش نفس الحيرة التي عانى منها «يوسف» بين أن يلقي بنفسه في أحضان امرأة العزيز، أوأن يلقى به في السجن. ومع ذلك فالشاعر كفء لمواجهة هذا العالم بدليل أن الدكتور بدوي وضع الشاعر على قدم المساواة مع العالم، في معادلة شعرية ذكية. فعنوان القصيدة هو «المعادلة» حيث إن الشاعر = العالم.

وإذا كانت القصيدة تتكون من ست مقطوعات فإن شاعرنا قد خصص الجزء الأول منها للتمهيد للأحداث الفعلية حين رسم لنا صورة للعالم الذي يعيش فيه «الشاعر أو يوسف المعاصر» الذي لايرضى عن هذا العالم، لأنه لايجد من يبادله حتى الابتسامة، وحين ينادي لايجد من يلبي نداءه، فلا يملك إلا أن يرتد إلى داخله، ويتوجه إلى قلبه فيناديه ويسأله:

يا قلبي ماذا يفعل إنسان شاعر
في هذا العصر الفولاذي الجائر
في القانون المتواري من خلف السيف
في سبع سنابل لم ينضجها الصيف
في صوت الإنسان المكروب المسكين
في النصف الثاني من هذا القرن العشرين
هذا الصوت القائل:
إن لم تقتلني أقتلك
هذي الأنثى لي أو لك
هذي اللقمة لي أو لك
لن يعطى شيء لاثنين
إلا إن كان السيف الواقع ذا حدين!

وهنا نصطدم باغتراب الشاعر في زمانه فعلى كثرة مانادى ولم يستجب له، استخدم «يا» النداء في مساءلة قلبه حتى كأن قلبه قد ابتعد عنه. وعلى هذا يكون الحديث عن «الاغتراب» هوالمدخل لتوظيف «قصة يوسف» لتدور الأحداث - فيما بعد - في هذا الجو الغريب على عصر يوسف لكنه في صميم عصرنا. فالشاعر لايكتفي بتقديم أحداث القصة القرآنية المألوفة في صور غير مألوفة ولكنه يقدمها أيضا في إطار غير مألوف في عصرها وليس في عصرنا. وهذا يضع يدنا على شكل من أشكال التوظيف عند شاعرنا. فيحلل لنا أسباب الكرب الذي يعيش فيه الإنسان إما بسبب «**القانون المتواري من خلف السيف**» أوبسبب «**سبع سنابل لم ينضجها الصيف**» ثم يؤكد أن هذا من نتاج «**النصف الثاني من هذا القرن العشرين**» ثم يتحدث عن صوت الإنسان المعاصر القائل بالأنانية في كل كلماته وأفعاله حيث تتحول القوة في يده إلى سلاح يغتصب به الأنثى واللقمة كما يغتصب الحياة نفسها.

ثم يرصد سلوك هذه الحالة في ثلاثة محاور، أولها حين يتحدث عن العصر المزوّر الضامر - ليصور اغتراب الإنسان في مجتمعه. حيث:

لن يعرف إنسان آخر
لن يصدق إنسان في ميعاده
لن ينظر إنسان في عين محدثه..
أو في كلماته، فلكل عالمه المصمت !

ثم يجيء اغتراب الإنسان في أسرته حيث ينعدم الحب بين العشاق، وتموت الأشواق، حيث:

لن يعشوشب حلم في أهداب العشاق
لن ينخلع القلبان بوقت فراق

ولايكترث الزوج بحياته الأسرية، حيث لن يذكر زوج في أطراف الباب زمان العودة، فهناك بحار الموت الشاسعة الممتدة، ثم يصل الإنسان في اغترابه إلى أضيق دائرة حين يصبح «غريبا» عن «ذاته» أوينشغل عنها: ومحال أن يتطلع إنسان إلى ذاته.

وهذا الجو«الاغترابي» الذي وظفت فيه «قصة يوسف» عند شاعرنا يمتد في العديد من قصائده.

ولكن تتضح الرؤية أكثر في قصيدة «الشاعر والعالم» حين يفتتح المقطع الثالث منها بسؤال «مأساوي» يتوجه به إلى من يشير إليه بصفات وجهه:

« **ياذا الوجه المعشوق الباهر**
ماذا نفعل ؟
هذا عصر السائح
والبيت المستأجر»

وهنا نقف على «**المفارقة المأساوية**» حين نتأمل الصلة الغربية - ظاهريا -« **بين الوجه المعشوق الباهر**» من جهة، وبين «**السائح**» و«**البيت المستأجر**».

المفارقة المأساوية

ولكن المتأمل لايلبث أن يجد مفتاح هذه الصلة، ذلك لأن «يوسف» صاحب الوجه الباهر كان معشوقا في عصره، ومع ذلك رفض عددا من العاشقات. أما يوسف عصرنا فقد ساح خلف امرأة العزيز يبحث عنها من بلد إلى بلد فإذا وجدها شق طريقه إلى البيت المستأجر فهل

كاتب الدراسة د . محمد أبو بكر حميد مع أستاذه الدكتور عبده بدوي

هناك غرابة في أن نتوجه إلى يوسف القرآني بالسؤال «ماذا نفعل؟» ثم يدلل الشاعر بصور تؤكد على هذا المعنى كما في قوله:

«وبنات يستدرجن الليلة من فوق شريط الماء لقاء قروش معطوبة» .

ويوحي بحالة الإنسان المعاصر من خلال حالة العصر كقوله:

«هذا عصر تعطي فيه الشمس رطوبة
هذا عصر العدادات المنصوبة...
حتى من فوق شفاه الناس
هذا عصر الوسواس الخناس
في كل مكان فوق الأرض
في خط الطول وخط العرض !.

وهذا كله يدلل على «فساد» الحضارة الحديثة، وبأن الإنسان قد وقع في براثن أعماله !!، والنفس الرطب الذي نحسه في هذه الصورة يؤكد على حالة الهبوط الحضاري الذي نمر به، والذي هو من نتائج هبوط القلب الذي تسبب في موت العواطف الإنسانية. فتحمل هذه الصور شعورا بالحزن على قلب من حجر.

ومن هنا كانت حالة «الاغتراب» عند شاعرنا متجمعة مكثفة في صورة شعرية حين اعتمد على «المفارقة المأساوية» و«التضخيم» بهدف إحداث الصدمة التي توقظ الشعور وتدفع للتفكير والعمل وإذا كان تشيكوف من خلال «التضخيم» رسم «صورة مستقبلية» استمدها من واقعه فإنها تنطبق أكثر ماتنطبق على عصرنا. وعلى هذا فإن علينا أن ننظر إلى شعر عبده بدوي بأنه يتسع بدائرة الواقع ربما خلف آفاق لايراها معاصروه لكن مانؤكده أنه قد نجح في - صوره الشعرية - في «الإرهاص» بحالة «الهبوط الحضاري» القادم كالتتار في همجية لاتبقي ولا تذر، فهو يستثير الهمم حين يصرح مناديا يوسف:

«ياذا الوجه المعشوق الباهر ماذا نفعل؟»

وحين يطرح شاعرنا همومه المعاصرة أمام الوجه المعشوق الباهر ليرسم من خلاله صورة يتخذ من التناقض مدخلا لتحديد ملامح المفارقة التي يقوم عليها الكثير من قصائد الشاعر. فهنا يتقابل «وجه» يوسف المعشوق الباهر مع الوجه المعاصر القبيح الكالح فيحاول الشاعر أن يستمد الضوء من الوجه الباهر

أويلتمس عنده الحلول لهمومه المعاصرة. وعلى هذا نجده يناديه بحرارة:

« **ياهذا**

إما أن تضرب في حيث يكون القلب

أوأن تتدلى في أعماق الجب »

وهنا نحس أن شاعرنا يضع يوسف أمام الخيار الصعب حين يواجهه بالحيرة التي يعانيها الإنسان المعاصر، وبخاصة حيرة الشاعر أو الفنان الذي أسقطه هذا العصر في مواقف متميعة. وبالتالي فإن عبده بدوي يدعو يوسف - ومن خلاله الشاعر المعاصر - إلى أن يتخذ موقفا مما يجري، فإما أن يكون صادقا مع نفسه وعصره حيث يكون القلب، وإما أن يصمت ويموت «في أعماق الجب» . وهذا يؤكد لنا مدى إصرار شاعرنا على حث الشاعر المعاصر للوقوف بصلابة في وجه «**هذا العصر المعزول الضامر**» وقفة ملتزمة من خلال تكرار مغزى بعينه.

ولما كنا قد تعرفنا على «منهج» الشاعر في توظيف قصة يوسف وهو تقديم الأحداث في صورة مكثفة معكوسة أي أنه يعيد عجن المادة على أرض معاصرة فتبدو القصة وكأنها تحدث في الحاضر حين يتقمص أبطالها روح «**هذا العصر المهزول الضامر**»، فإن «يعقوب» لن يبكي ابنه «يوسف» ولن تبيض عيناه من الحزن، ولكن الذي يتحقق بالفعل في هذا العصر الشائه هوالجزء الدموي من رؤيا السجن - في قصيدة «الشاعر والعالم»:

« **أوتحسب أن أباك سيبكي حتى تبيض العينان من الحزن**

أوأن الرؤيا في السجن العاتي لن تتحقق

فترى رأسا لايأكل منه الطير

ونلاحظ أن شاعرنا - هنا - قد اختار رؤيا السجين الثاني الذي ستأكل الطير من رأسه دون رؤيا السجين الأول الذي سيسقي ربه خمرا، لأن رؤيا السجين الثاني أكثر مأساوية وينعدم فيها حتى الخيار.

الإسقاط المعاصر

وإذا كانت النساء في مصر قد قطعن أيديهن هياما

الشاعر في الجنادرية ٢٠٠١م

بجمال يوسف ﴿**وقلن حاش لله ماهذا بشراً إن هذا إلا ملك كريم**﴾.. (الآية ٣١) فإن شاعرنا يقدم لنا هذا الموقف في صورة مفارقة تمس صميم هذا العصر:

« **أو أن النسوة في مصر لايقطعن الأيدي من أجلك**

ويقلن بخبث « إن هذا إلا ملك» نلقى صدقهُ

من بين الشهقة بعد الشهقةُ».

فبين النساء المعاصرات من لا ترى في مراودة امرأة العزيز لفتاها عن نفسه وشغفها بحبه أية غرابة، ولن يقلن إنها في ضلال مبين، ولذلك فآثار القطع تكاد تكون «ممحوة» من أيدي هذا النوع من النساء، فهن لم يقطعنها بسكين، ولأن امرأة العزيز لم تكن بحاجة لاستدعائهن فيوسف المعاصر لم يقل «معاذ الله» ولم يؤثر السجن على مايدعونه إليه، وإنما ترى امرأة العزيز المعاصرة يهم بها قبل أن تهم به، لأن «الدنيا

صارت غير الدنيا» فانعكست كل المفاهيم على مايرسم الشاعر ليوسف خريطته المعاصرة:

« فعشيقتك المصرية مازالت في الخارج عند طبيب الأسنان

وخزائنك الملأى غصت بالجرذان

وعزيز الدار تمطى لايعنيه شيء إلا أن يحلم

وقميصك من دمه لن يبكي غير الذئب»

وهذا الموقف يتوزع في «لقطات» ثلاث مركزة ضاغطة على موطن الداء في الحياة المعاصرة.

فالصورة الأولى: تمثل عشيقة «يوسف» امرأة العزيز المعاصرة - التي لم تعد تخلص حتى لعشيق واحد مادامت قد خانت العزيز، وإنما عرفت طريقها إلى الآخرين، وعرفت كيف تتأخر عند طبيب الأسنان. ومن هنا يضع الشاعر يده على المفارقة المأساوية الساخرة التي يعيشها الإنسان المعاصر، حيث سرى التحلل في بعض الرجال والنساء على السواء، فإذا كنا نرى المرأة المخطئة اليوم لاتتراجع، فذلك لأنها افتقدت طهارة «يوسف» في عشيقها، وافتقدت سماحة «العزيز» ومحبته في زوجها. فالعزيز المعاصر لم يعد يهمه إن كان قميص زوجه قد «قُدَّ» من «قُبُل» أو من «دُبُر»، وإنما كل الذي يهمه أن يحلم وأن يتمطى دون أن يخطر بباله السؤال عن التي تتأخر عند طبيب الأسنان ؟!!

أما الصورة الثانية: فتتمثل في «خزائن» العزيز المعاصر التي غصت بالجرذان. وعبده بدوي يقدم هذه الصورة المعكوسة، ليصل إلى عمق المأساة في عصرنا، فنحن نعرف أن خزائن العزيز في عصر يوسف كانت ملأى بالخيرات وكانت الخيرات تمتد إلى خارج حدود البلاد على نحومانعرف في «سورة يوسف» التي تحدثنا عن قدوم «الإخوة» إلى مصر التي فتحت لهم خزائنها ، وفي الحقيقة أن يوسف هوالذي فعل ذلك رغم محاولتهم الإيقاع به في «جب فاغر».

والصورة الثالثة: يرسم فيها الشاعر «قميص» يوسف الذي لن يبكيه غير الذئب. وهذه الصورة تمس «العصب» المأساوي في الذي يقوم عليه منهج شاعرنا د. بدوي في تشكيل مفارقاته، ذلك لأن القلب الإنساني اليوم قد مات فيه الإحساس من كثرة ماأكلت منه الطيور بحيث أن أبا يوسف، وهو يعقوب المعاصر، لم يعد يبكي ابنه وإنما الباكي - هذه المرة - هو الذئب - وهنا نصل إلى صلب التوظيف الشعري - حيث إن المتهم بدم يوسف - كما يروي الإخوة في القصة القرآنية - يحل محل الأب يعقوب الذي فقد بصره حزنا على ابنه. فما أبدع صورة - الذئب الذي يبكي قميص «يوسف» المخضب بالدماء وما أصدق «المتهم» حين يبكي «الضحية». ومن خلال هذا تبرز صورة يعقوب المعاصر ساخرة ومحزنة ومأساوية:

« أما يعقوب فهو يحث خطاه الليلة

- في معطفه الخالي من كل بشاشة

كي يشهد في شبق من فوق الشاشة

إحدى قصص الحب ! »

لقد نسي يعقوب المعاصر.. نسي الفرح أيضا لأنه يخطو إلى «السينما» بمعطف خال من كل بشاشة.

اعتمد شاعرنا في رسم الشخصيات القرآنية في قصة يوسف على تجسيم التجربة وتكثيفها لتعطي الصورة في النهاية درسا في الشعور، لهذا أسقط على الشخصيات الإحباط الذي يعانيه الإنسان المعاصر، ولما كان يعرف التركيبة النفسية والعاطفية لكل شخصية كان الإيقاع «بطيئاً» وحزينا، فتخرج الصورة ساخرة ومأساوية على نحو ما نرى في صورة يعقوب. ثم لما كان التوظيف لشخصيات سورة يوسف يخرج على هذه الصورة النفسية التي تعبر عن صوت «الجيل الحائر» والتي تضعه أمام «الخيار الصعب». فإن شاعرنا عبده بدوي يخاطب يوسف صراحة باسمه يدعوه للعودة إلى الجب فهو خير له من هذا «الزمان الرخو» الذي مات فيه قلب الإنسان وتحول إلى قطعة حجر فما عاد يدق:

« يايوسف

ماعاد يدق القلب

فاهبط للجب

اهبط للجب »

ودعوة يوسف للعودة للجب ليست دعوة يائسة بمقدار ماهي دعوة تدخل ضمن إطار «التخيير» الذي يصدر عن الذات، ولايأتي من خارجها. فعودة يوسف للجب تعني

أن يختار مصيره بيده خير له من أن يلقى به في الجب بأيدي الإخوة، فالجب هوالعودة للذات على العيش في ذلك، وهو رفض للحلول المتميعة. فإما أن يعيش بكرامة وإما أن يموت، بمعنى إما أن يكون أو لا يكون. وعلى هذا تظل الدعوة للهبوط في الجب دعوة للبقاء من خلال استثارة مشاعر يوسف وتحريضه على التمسك بالقيم والإصرار على الحياة. فالوجه الباهر لايمكن أبدا أن يهبط للظلام.

الصورة الشعرية والموقف:

الصورة الشعرية عند عبده بدوي - في إطار توظيفه قصة يوسف القرآنية - غالبا ماتظهر في صور كالجرعات فنجد بعض الصور «يطغى» فيها الصوت على بقية عناصر الصورة، وخاصة عندما يستخدم « يا» النداء، و«لا» الناهية، والبعض الآخر يطغى فيها اللون أوالحركة، وأحيانا تمتزج هذه العناصر معا لتعطي الصورة الشعرية نوعا من «الحيوية الدرامية» أوتضعها في موقع «الاحتدام»، لكن كثيرا مايحبذ شاعرنا أن يرسم صورة في حالة «شروع»، فتبدو «كلقطة سينمائية» أوقفت فجأة لتدعونا للتأمل. ولعل السر في اختيار شاعرنا لهذا «الشكل» - الذي يصب فيه صوره الشعرية - أن «يرمز» به إلى حالة من أخطر حالات هذا العصر الذي لا تكتمل فيه الأفعال، لأنه يوجد دائماً من يجترها تماما، أويسد عليها طريق الاكتمال.

ولما كان أغلب حالات «الشروع» تتوقف قهراً وقسرا دون المضي إلى تحقيق «الفعل» الكامل فلا تتحقق الغايات النبيلة في الحياة المعاصرة «**في القانون المتواري من خلف السيف**» تسجل موقفا حركيا في حالة شروع حين يخاطب الشاعر يوسف:

«**احذر لا تترك أيدى الإخوة حتى لاتلقى في بئر مفقود القاع**

أو تذكر في عطف (لا تثريب)».

وإذا تأملنا هذه «الصورة» فسنجد فيها اجتماع عدة صور صوتية كالصوت الصارخ في (احذر) وفي لا الناهية التي تسبق الفعل المضارع، وهذا الصوت يأتي في إطار حركة لاهثة. وكل هذا يحمل إيحاء يعمقه الاقتباس القرآني. وقد جاءت صورة الشروع - هذه المرة - لتحقق فعلا إيجابيا. فالشاعر هنا يصرخ محذرا «يوسف» من الانصياع لفعل «الإخوة» وداعيا لقطع «الشروع» الذي هم فيه بشروع آخر مضاد. وهذا يعكس «حالة نفسية». فبمقدار خوفه على يوسف من أيدي الإخوة يخشى أن يقتل الزمن.

لقد بدؤوا في إلقاء «يوسف» في البئر، وفي هذه الحالة صور .. نستطيع أن نتصور حالة الاحتدام والتوتر والقلق التي تعبر عنها هذه الصور. ثم يخلق هذا الموقف شعورا بالخوف وتلاحقا في الأنفاس حين نرى البئر التي يهم الإخوة بإلقاء يوسف «مفقود القاع». فندرك أن الشاعر يحدثنا عن «إخوة» غير «إخوة يوسف» وعن «بئر معاصرة» مفقودة القاع غير تلك البئر التي اختارها إخوة يوسف ذات القاع، ليلتقطه بعض السيارة، إذ إن «الإخوة المعاصرين» أشد قسوة من «إخوة يوسف» لأنهم يريدون هذه المرة أن يقضوا عليه نهائيا بالموت.

والحالة التي توحي بها هذه الصورة حالة «خوف» وإحساس «بالضيق»، أما «المأساة» فيعمقها الشاعر في صورة البئر المفقود القاع، وإذا ماسقط يوسف فيها هذه المرة فإنه لن يعود، وهنا يعاودني أنين صرخة الشاعر الزاعقة:

«**احذر لاتترك أيدي الإخوة.. حتى لاتلقى في بئر مفقود القاع**».

وعلى هذا فصور عبده بدوي تستثير في تجربته الشعرية الشعور من خلال عرض «موقف» يعبر عن حالة نفسية وذلك في وسائله الفنية وفي استخدامه لوسائل البلاغة الحديثة كالرمز والتلميح والإيحاء والاقتباس، وتوظيفه «المحكم» للقصة القرآنية. وهذا الإحكام يدلل على أن الشاعر لايستسلم لمشاعره التي قد تدفع به إلى التعبيرات المباشرة، وإنما هو يحافظ على أصالته من خلال إخضاع التجربة الشعرية لمنهجه الفني بحيث تتوافر في شعره المشاعر التي تبث أفكاراً تترسب في النفس من خلال الصورة الشعرية

وموسيقى الشعر، وبهذا تكون مهمة الصورة في هذه الحال، تعميق الشعور، والإيحاء بالأفكار وهذا موطن قوة الشعر الذي هومن قوة الخيال وصدق العاطفة عند شاعرنا.

معمار القصيدة

أما معمار القصيدة عنده فإنه - إضافة للصورة الشعرية - يقوم على سلسلة من المواقف في «تكوين» أشبه «باللقطات» السريعة التي تقترب من التقطيع السينمائي على نحومانجد في قصيدة «الشاعر والعالم» التي تقوم على جزئيتين أولاهما مقاطعها الثلاثة الأولى التي تقوم على «التصور الدرامي» ومقاطعها الثلاثة الأخيرة التي تقوم كذلك على التصوير الدرامي. فالتصوير الدرامي لايقوم على رسم الفعل بالكلمات بمقدار ماتكون الكلمات هي الفعل في حالة صراع وفي حالة توتر واحتدام مثلما نجد في الصوت القائل «**إن لم تقتلني أقتلك**» وفي الصراع على الأنثى، وعلى اللقمة، وبأنه: «**لن يصبح شيء لاثنين**». فهذه الصور والمواقف تقودنا لتصور شعور «الأنانية» ومع أن الشاعر لم يورد كلمة «الأنانية» إلا أنها التيار النفسي الذي يجري تحت «**الكلمة الفعل**» و«**لن يذكر زوج في أطراف الباب زمان العودة**» و«**لن ينظر إنسان في عين محدثه**» وغيرها من المواقف التي تقود للتصوير الدرامي لكن هذا التصوير يقود في النهاية إلى التصوير في المقاطع الأخيرة، فكان التصوير هوالحقل الذي تزرع فيه الصورة المقتبسة عن قصة يوسف في مجموعة مفارقات وصور معكوسة.

وهذا البناء الشعري لاتكون الغاية منه التي يقصدها القرآن الكريم في سورة يوسف فالشاعر هنا لايعيد صياغة القصة القرآنية بنفس المضمون وإنما يهتم أصلا بالبناء الذي يضغط على الأفعال «المضارعة» و«المستمرة» التي تضع الصور في حالة اتصال، وإن كانت كل صورة منفصلة عن غيرها في إطار محدد إلا أن الذي يجمع بينها كالذي يجمع بين لقطات في شريط سينمائي قبل عرضه، فإذا ماعرض، بدا وحدة واحدة، وأداة العرض عند الشاعر صفة «الاستمرارية» في الأفعال كامرأة العزيز التي مازالت عند طبيب الأسنان، وفي أثناء التأكيد على أنها مازالت في الخارج تجيء اللقطة التي بعدها مباشرة تماما كما تقول بأن عزيز الدار «تمطى» ولايعنيه شيء إلا أن «يحلم».

ونلاحظ أن الشاعر استخدم «تمطى» ولم يستخدم «يتمطى» لأن كلمة تمطى تتناسب تماما مع استمرارية الفعل في «مازالت» لتؤكد حدوث «التمطي» في أثناء غيابها. أما كلمة «يحلم» فتدلل على عدم الاكتراث المستمر بالزوجة. وقس على هذا مختلف المواقف التي استخدمها الشاعر عن قصة يوسف - في شعره - مع الدعوة «للتصور» في صور المقاطع الأولى من قصيدة «الشاعر والعالم». فالعفن والفساد الذي توحي به صورة «**هذا عصر تعطي فيه الشمس رطوبة**» نراه ممثلا في نوع الحياة الزوجية بين العزيز وامرأته - في القصيدة لافي القرآن - كان هذا الفعل يتمثل في موقف درامي جاء «مرسوماً». أما «التصوير» فهو نتاج «الكلمة الفعل» التي تحمل شحنة شعورية مكثفة تستثير «الخيال» وتدفع «للتصور».

وبعد .. فهل نحن بحاجة لأن نسأل: لماذا الوقفة الطويلة التي وقفها الشاعر عند قصة يوسف ؟ وأعتقد أننا إذا عرفنا أن «سورة يوسف» قد ترسبت في لاشعور الشاعر منذ طفولته حين كانت أمه تحثه على قراءتها باستمرار فرسخت في ذهنه كقطعة عزيزة من الذكريات تشربها وجدانه ثم ارتبطت في عقله بقضايا ظلت تكبر وتنمو وتتطور - في مختلف مراحل العمر - بتطوره الفكري والفني حتى تحولت إلى رموز للقضايا الكبيرة في حياة الإنسان المسلم، فاستطاع الشاعر أن يستفيد من «التعقيد» في علاقات شخوصها، ومن «خصوبتها الدرامية» التي مكنته من زرع أكثر من تجربة شعرية فيها.

رحم الله أستاذنا عبده بدوي فقد كان فنانا عظيما ومسلما مخلصا عبر عن قلقه على أبناء أمته في فنه أصدق تعبير. ■